International Jordanian Journal Aryam for Humanities and Social Sciences; IJJA
Volume2, Issue4, 2020

On the Historicity of the City of Sfax and the Importance of Its Heritage in Contemporary Design

Dr. Mayari Azzedini

Higher Institute of Arts and Crafts of Sfax – Tunisia

Received: 5/9/2020
Revised: 9/10/2020
Accepted: 19/11/2020
Published online: 3/12/2020

* *Corresponding author:*
Email:
ezdinimayara@gmail.com

Citation: *Azzedini.M. (2020). On the Historicity of the City of Sfax and the Importance of Its Heritage in Contemporary Design. International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences; IJJA, 2(4).*
https://doi.org/10.65811/241

©2020 The Author(s). This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution 4.0 International (CC BY 4.0) license. https://creativecommons.org/licenses/by/4.0/

International Jordanian journal Aryam for humanities and social sciences: Issn Online **2706-8455**

Abstract:This is a research on the relationship of literary criticism with the human sciences, specifically its relationship with psychology and sociology, as they are two sciences whose subject is human and society, which puts them in an intertwined relationship with literature and criticism, The research reviews the limits of this overlap and the theoretical and critical foundations that have invested the conceptual apparatus of psychologists and sociologists in the study of literary achievements, and it clarifies the various visions and methodologies that dealt with the literary text in its psychological and social dimensions, It also highlights the importance of integrative interdisciplinary studies in discourse analysis, and monitors the course of critical study in the Arab world and its prospects in light of the predominance of systematic studies and the absence of interaction with other sciences.
Keywords: psychology; Sociology; systemic; contextual; interdisciplinary studies.

في تاريخيّة مدينة صفاقس وأهميّة موروثها في مجال التصميم اليوم

الباحثة ميارى عزديني

الملخص: هذا بحث في علاقة النقد الأدبي بالعلوم الإنسانية، وتحديدا علاقته بعلمي النفس و الاجتماع، بصفتهما علمين موضوعهما الإنسان والمجتمع، ما يضعهما في علاقة تداخلية مع الأدب و النقد، يستعرض البحث حدود هذا التداخل و التأسيسات النظرية والنقدية التي استثمرت الجهاز المفاهيمي لعلمي النفس والاجتماع في دراسة المنجزات الأدبية، ويجلي مختلف الرؤى والمنهجيات التي تعاطت مع النص الأدبي في بعديه النفسي والاجتماعي، كما يبرز أهمية الدراسات البينية التكاملية في تحليل الخطاب، ويرصد مسار الدراسة النقدية في العالم العربي وآفاقها في ظل غلبة الدراسيات النسقية وغياب التفاعل مع العلوم الأخرى.
الكلمات المفتاحية: النقد؛ علم النفس؛ علم الاجتماع؛ النسقية؛ السياقية؛الدراسات البينية.

المقدمة

تفرَّدت مدينة صفاقس بطابعها التّاريخي والتراثي وفي تشكيلة سكّانها ومعالمها الأثريَّة الماديّة والغير ماديّة وخصائصها المعماريّة. ولعلّ من أهمِّ مظاهر التراث المعماري والتجاري لهذه المدينة والذي سنهتمُّ به في هذا العمل، هو الموروث الثقافي الذي يمكن أن نَستفيد منه اليوم في مجال التّصميم و ابتكار المنتوج، ولعلّ هذا ما تشهده المدينة اليوم. لذلك، سنتطرّق إلى مجموعة من الحرف التقليديّة وسننظر خاصّة في حرفة نجارة "الجبوز" لما شهدته من تطوّرات. ثمّ سنحاول النّظر في عادة غذائيّة متميّزة، تتمثّل في "النحاسة" وكيفيّة استلهامي منها في تجربتي التصميميّة.

فماهي أهمّ مميّزات هذه المدينة التّاريخيّة وقيم تتمثّل قيمة تراثها؟ وهل يمكن الحديث عن آفاق تصميمية ممكنة من خلال موروثها الثقافي؟

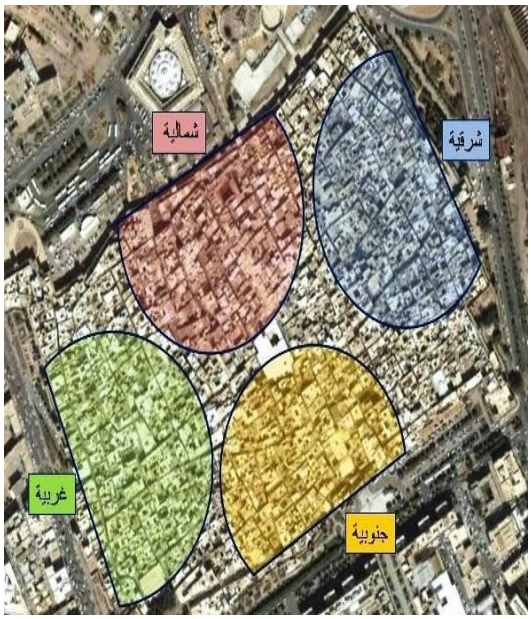

صورة تبين جغرافية مدينة صفاقس

١. مدينة صفاقس:

- تعريفها:

إن معنى كلمة «صفاقس» حسب ما برز في كتاب معجم البلدان للكاتب ياقوت الحموي: «بصاد مفتوح بعده فاء وبعد الألف قاف وآخرها سين مهملة» وورد أيضًا في نفس الكتاب: «صفاقس بفتح الصّاد وضمّ القاف بلد بإفريقية على البحر». ولعل من أبرز أسباب تسمية المدن هو ما يعود إلى العلاقة التاريخية التي لها في ذلك الزمن أو بأسماء مؤسِّسيها أو الأمير الذي تأسّست في فترة حكمه. وبالتّالي، فإن أسماء المدن مرتبطة بالطابع التاريخي والسّياسي.

- موقعها:

تقع مدينة صفاقس بين السّاحل والجنوب التونسي يحدها من الجهة الشرقية البحر الأبيض المتوسط ومن الجهة الشمالية ولاية المهدية ومن الجهة الغربية ولاية سيدي بوزيد ومن الشّمال الغربي ولاية القيروان ومن الجهة الجنوبية ولاية قابس. تبلغ مساحة صفاقس ٧٥٦٩ كم مربع أي ما يقارب ٤,٦% من المساحة الجميلة للبلاد التونسية وتحتوي على ما يقارب ٩٠٤,٩٠٠ ساكنا حسب المؤشر التقديري لإحصاء السُّكّان والسُّكنى لسنة ٢٠١٩.

تضمّ مدينة صفاقس سهولاً منبسطة. وعمومًا لا يتعدَّى ارتفاعها ١٠٠ متر ويبلغ طول سواحلها فيها ٢٣٥ كلم هذا بالإضافة لاحتوائها على تراب رملي يختلط في بعض الأحيان بمواد طينية. تُعرف مدينة صفاقس بقلَّة كمية الأمطار. والتي يبلغ معدّلها السَّنوي حوالي ٢٠٠ مليمتر. إضافة إلى ذلك، عُرفت مدينة صفاقس بما تتوفَّر عليه من عدد كبير من شجر الزيتون. وقد لاقت هذه الشجرة المباركة عناية فائقة. الأمر الذي جعلها من الأسباب الرَّئيسة التي تساهم في ثراء الجهة وتدعم ركائز بناها الفلاحية والتجارية والاقتصادية. فضلاً عن ذلك اعْتُبرت مدينة صفاقس القطب الثَّاني داخل البلاد التونسية نظرًا للوزن الديمغرافي الذي تحمله ودورها المتواصل والمستمر داخل الحركة الاقتصادية.

عُرفت هذه المدينة بالتراث المعماري الذي تحمله داخل المدينة العتيقة وبتنوع مشهدها الحضري. هذا بالإضافة لاحتضان صفاقس عديد الأنشطة الثقافية المتنوعة كالعروض الموسيقية والسينمائية والمسرحية التي تضمها على طول السنة داخل فضاءات مهيأة وملائمة مثل المسرح البلدي ودور الثقافة ومسرح الهواء الطلق بسيدي منصور المنفتح على ضفاف البحر. هذا بالإضافة إلى وجود المركز الوطني للفنون الدرامية والركحية، علاوة على النشاط الذي يقدِّمه المركب الثقافي محمد الجموسي والدَّوْر الذي تلعبه إذاعة صفاقس في الإعلام الجهوي والوطني.

- تركيبتها الاجتماعيّة:

تميّزت مدينة صفاقس بطابعها الحضاري المتنوّع. ويتجلَّى ذلك من خلال تركيبتها الاجتماعية، زيادة عن الاختلاف في مشهدها الثقافي واللّهجات المحليَّة. ومن شأن هذا أن يجعل من مدينة صفاقس مدينة تشهد مجتمعا منفتحًا متواصلاً مع الآخر. وعليه، عُرف الطَّابع الإجتماعي الخاص بهذه المدينة بمبادئ قيم التسامح والتعايش رغم ما كرَّسه الاستعمار من احتقار وإذلال بعد سيطرته على الاقتصاد والتجارة الخارجية والإدارة وإلحاق عديد الخسائر بأهل المدينة.

لقد نجحت التركيبة الإجتماعيَّة المختلفة الأصول والتي شهدتها صفاقس في تلاقح الثقافات وتعاقب الحضارات. إذْ اجتمعت مختلف الديانات الثلاث فيها، ويُعتبر الإسلام هو الدين الرَّسمي لأهل المدينة. ودون أن ينفي ذلك وجود اليهودية ولها معبدها قائمًا إلى الآن. وكذلك المسيحيَّة التي لها هي الأخرى معبدها... لقد كانت في السابق ثلاثة أيام عطلة في الأسبوع : يوم الجمعة يخصِّصه المسلمون لأداء فريضة صلاة الجمعة وتلاوة القرآن ويوم السبت لليهود حيث يتأمّلون التوراة داخل الكنيسة أو في المعبد اليهودي ثم يذهبون للقيام بجولة في أحلى حللهم ويوم الأحد اعتبر يوم عطلة لجميع الناس.

برز التنوّع الإجتماعي على مستوى السلوكيات واللّباس واللّهجات البيِّنة في اللُّغة الدَّارجة. فقد كان العديد من الإيطاليين يعملون في التّجارة والعديد من المالطيين يشتغلون في الصيد البحري. وبالأخصّ في قطاع الخدمات وأساسًا منه النَّقل مع تركيز عدد منهم على تربية المعيز والبقر.

لم تقتصر ميزة الانفتاح الثقافي والتّلاقح الحضاري وتنوُّع مستويات النّاس في صفاقس في فترة محدّدة بل تمّ سحبها على تاريخ المدينة بأكمله لاعتبار هذا التنوُّع من الناس يساهم في الانفتاح على الآخر.

لم ترفض مدينة صفاقس من أراد العيش فيها أو التعامل معها كمدينة بل كانت، في المقابل، تستقبل على مدى تاريخها موجات من الناس الوافدين وقد استقروا فيها إمَّا للخدمة الإدارية أو العسكريّة أو الاقتصادية أو طلبا للرزق. وهم من أصولٍ عربية وتركية وبربرية متعددة ومختلفة. وهو ما ساهم في تنوُّع العادات الإجتماعية والأعراف القيميَّة التي يحترمها عادةً سكَّان المدينة ويحافظون عليها إلى حدَّ التباهي بها أحيانًا.

تقع مدينة صفاقس على هضبة سهلية ساحلية مساحتها أربعة وعشرون هكتارا. وقد تأسست هذه المدينة سنة ٨٤٩ ميلاديَّة وذلك على ضفاف قريتين رومانيتين قديمتين وهما تبرورة وطينة. تحرَّرت صفاقس من النورمان على يد القوى المحلية وذلك بالتحديد سنة ١١٥٦ ميلاديَّة. كما تمَّ احتلال صفاقس من قِبَلِ الإسبان في فترة وجيزة في القرن السَّادس عشر. ثمَّ احْتُلَّت من قِبَلِ فرنسا في آخر القرن التاسع عشر ومنذ سنة ١٨٨١. وذلك بعد أنْ شهدت هذه المدينة خلال سنة ١٨٠٤ مع دول السّاحل البربري حربًا مع الولايات المتحدة الأمريكيَّة.

كما شهدت منذ عصور ما قبل التاريخ حياة بشريّة تركَّزت فيها بالأساس الحضارات الرومانية والبونية والبزنطية والعربية الإسلامية. أمَّا بالنّسبة إلى هذه الأخيرة فثمَّة آثار شاهدة على مدى ازدهارها، حيث دلَّت هذه المدينة أيضًا على آثار مدفونة، منها ما يعود إلى عهود ما قبل الإسلام.

- أصل سكَّان مدينة صفاقس:

إن البحث في موضوع أصل سكان هذه المدينة يستدعي منَّا دراسة كبيرة للوثائق التاريخية ويتطلب منَّا التعرُّف على تراث العائلات الأكثر تفرُّعًا في صفاقس. وإذا ما بحثنا في كتب التّاريخ القديمة فلن نجد معلومات كثيرة عن أصل سكّان هذه المدينة.

يمكن اعتماد ما قاله الكاتب محمود مقديش في كتابه نزهة الأنظار لغاية أن نستفيد ببعض المعلومات التاريخية، فيقول في أوّل حديثه عن مدينة صفاقس: «كانت صفاقس في ابتداء أمرها محرسًا من المحارس، برجًا في موضوع قصبتها الآن (...) وكان هناك أناس يُقال لهم الأعشاش، وآخرون يُقَال لهم النواولة ساكنون في أخصاص من خوص، لا كسب لهم هناك إلاَّ صيد السمك»[1]. وكان حواليْ ذلك المكان بسواحل البحر وما قاربه من الأراضي قُرى كثيرة متّصلة ومتقاربة ولهم في ذلك الموضع في كلِّ يوم جمعة سوق يجتمع فيه أهالي تلك القرى. فاتخذوا له فنادق لحفظ دواب الواردين. وحدث هناك مرسى للقادمين من البحر كأهل قابس وجربة وطرابلس وقرقنة فأنشأ النّاس لهم مساكن.

وبالتّالي، نستنتج من خلال قراءة مقديش أن أوَّل سكَّان مدينة صفاقس هم الأعشاش والنواولة والعموص والنيفر. ثم تمَّ انضمام سكان القرى المجاورة وغيرها. ومن عائلة آل العش وآل النوالي تفرع عنهم آل الجراية والعموص وعباس.

لقد إستقرّت عائلة العش خاصة في ضواحي صفاقس الشرقية في القرن السَّابع هجري وعُرفت أحياؤهم بالأعشاش. هذا بالإضافة لعائلة الفرياني التي تميزت بتعدد فروعها في مدينة صفاقس. وتنسب هذه العائلة إلى قرية «فريانة» هذا علاوة على وجود عائلة القرقوري التي تنتسب إلى قرية قرقور بينما عائلة اللومي لها عدة فروع. فالبعض منها ينتسب إلى «قرية أومة». ومنها من جاء من قرية «ملول» التي تقع

---

[1]- مقديش (محمود)، **نزهة الأنظار** في عجائب التواريخ والأخبار ، دار الغرب الإسلامي، ج.٢،- لبنان الطبعة: الأولى، ١٩٨٨ م، صص.١٧١-١٧٢.

بجانب المهدية ومنهم أيضًا من يعود إلى الجهة الشرقية لمدينة صفاقس. فضلاً عن ذلك نجد عائلات صفاقسية عديدة من جزيرتَيْ «جربة» و«قرقنة»، كانت قد انتقلت منذ قرون كما نجد أيضًا عائلات من صفاقس استوطنت هذه الجزر وساهمت في تعميرها.

نجد من بين الوافدين على صفاقس عائلات ذات أصول من داخل تونس كالقيروان وسوسة والمهدية وقابس والكتار ووذرف ومن خارج تونس كطرابلس والمغرب والجزائر والإسكندرية وبغداد وغيرها[٢]. كما نجد من بين عائلات مدينة صفاقس عائلات ذات أصل عربي وفي مقدّمتها مَنْ وفد من أهل القيروان. وقد جاء بعض القيروانيين إلى صفاقس بغرض نشر العلم[٣]. وعموما فالعديد من متساكني المدينة قد عُرفوا بانتسابهم لقبائل فرعية انحدرت منها. وبعد طول الزّمن وبمفعول تأثير المجتمع الذي عاش فيه أحفادهم وتصاهروا برزت لديهم وعلى نحوٍ جديد بعض الألقاب التي أنستهم انتسابهم الأصلي. ومنهم بني تميم: سعيد خلف الله التميمي الذي شُهِرَ بلقب الصَّافي وهو من رجال القرن الثامن عشر. وأبو القاسم التميمي الذي عُرِفَ بالحكموني.

وهناك أبو الحسن علي بن محمد الربعي الذي جاء من القيروان واستقر في مدينة صفاقس وتوفي خلال سنة ٤٧٨ هجري. هذا بالإضافة لمن أتى من بني تنوخ مثل أبو الحسن علي بن حبيب التنوخي والذي اعْتُبر من أهم الشّعراء الذين عُرِفُوا في صفاقس وقد تُوفيَّ خلال سنة ٤٤٠ هجري. ومَنْ هاجر من بني قيس وأهمّهم: أبو إسحاق إبراهيم بن محمد القيسي وهو من رجال القرن الثامن هجري. ومن قريش: علي الكراي والشيخ سلامة بن يزيد والشيخ عبد الكافي العثماني والشيخ صالح الزريبي. ومن بين العائلات التي تنسب للإمام رضي الله عنه: آل خنفير وآل مخلوف الشرياني وآل سيدي مهذب وآل أبي عكازين الرقيق.

ومن أهمّ العائلات التي هي ذات أصل من المدينة المنورة: آل القطي الأنصاري. وأبو عبد الله محمد الصفار الأنصاري. وهناك من العائلات من قدم جدودهم مع جيش الموحدين والحفصيين مثال ذلك: آل المصمودي والهنتاتي والحكيم واللواتي والمراكشي وغيرهم... وهناك أيضًا من العائلات الوافدة من الأندلس وتركيا ونذكر منهم: آل التركي وابن مراد ووالي وقارة يوسف والشرياجي. وعمومًا، فإنَّ التركيبة السيسيولوجيا لصفاقس تقوم على التنوُّع في النّسب[٤]، بالرَّغم من بعض مظاهر الشُّعور الجمعي-المحلّي والذي يكاد يُشبه التواضع الاجتماعي بتميُّز العائلة الصفاقسية من جهتَيْ الأصل والفصل.

---

[٢]– ربَّما يعود هذا التّوافد والتنوُّع في بُعْدٍ من أبعاده، إلى أنَّ مدينة صفاقس من المراكز التجاريَّة والبحريَّة الهامَّة الواقعة على حوض البحر الأبيض المتوسّط. فضلاً عن شغف أهلها عادةً بتعلُّم الجديد من الحرف والاستفادة من مهارات الآخرين التجاريَّة.

[٣]– ويعود ذلك في تقديرنا إلى ما كانت عليه مدينة القيروان من حظوة علميَّة بوصفها عاصمة المغرب الإسلامي وشمال إفريقيا. وما كان عليه جامع عقبة من إنتاج للمعارف والعلوم ومزار للعلماء من مختلف التخصُّصات والأغراض.

[٤]– غير أنَّ مسألة النسب السّوسيولوجي تتعلَّق من جهة أخرى وفي مجال قيمي معاملاتي لدى معظم العائلات الصفاقسيَّة بالسُّلَّم الاجتماعي التفاضلي الذي يعتقد فيه البعض. وهو المحدِّد للشّعور برفعة مقام بعض العائلات مقارنةً بأخرى. فضلا عن شبه الشعور الجمعي لدى الصفاقسية عمومًا بأنَّهم من مقام إجتماعي وثقافي أرفع.

المدينة العتيقة في صفاقس:

- تعريفها:

أُحيطت المدينة العتيقة بأسوار مرتفعة رُمّمت في فترات متعاقبة. كما تعلو جدرانها أبراج وبناءات وأنهج. ففي القديم كانت لهذه الجدران وظيفة دفاعية أمَّا الآن فهي تضفي البعد الجمالي المتميز على طابع المدينة من الناحية المعمارية.

نجد داخل هذه الأسوار باب الجبلي من الناحية الشمالية وباب الديوان وباب البحر من الجهة الجنوبية. ذلك لأنّ البحر قديما كان يفتح عليه مباشرة وقد تميز كل من باب الجبلي والديوان بالسقف العالي الذي يربط بين فتحتيهما وذلك غاية الوظيفة الدفاعية التي كانت تحملها. كما نجد في سور المدينة فتحات مستقيمة ومعقودة في شكل نصف دائرة. إذْ أنَّ سكان المدينة يطلقون عليها اسم أبواب وذلك لكونها مجهزة بأبواب خشبية. لعلّ تسمية الفتحات للأبواب يعود إلى أن كلمة الباب ذات مدلول أوسع من معنى الفتحة في نظر سكان المدينة. ولقد ارتبط بناء هذه الفتحات حسب الأحداث التي مرت بها المدينة فمثلا هناك باب موجود في الناحية الجنوبية من السور قد أُطْلِق عليه اسم باب فرنسا وذلك لفتح هذا الباب في عهد الحماية الفرنسية. هذا بالإضافة إلى أهمية عدد فتحات الأبواب الموجودة في الجهة الشمالية والجنوبية التي تعكس مبدأ محافظة المدينة على انفتاحها أساسا على الجهتين الشمالية والجنوبية منها. لقد عُرِفت تسمية هذه الأبواب باسم الجهة التي تؤدي إليها كتسمية الباب الشرقي أو الغربي ومن ثم توسعت المقاصد من الأبواب كباب الجبلي أو باب الديوان.

يمكن للنّاظر أن يستنتج من أسماء الأبواب أنَّ لكلِّ باب ارتباطه بالمجال الذي يقع فيه ومن هنا يمكننا دراسة هذه الأبواب من خلال المواضع والتسميات والطابع المعماري والأشكال التي تنتمي إليها وتباين الفترات التي برزت فيها. وبالتّالي، اعتبرت المدينة العتيقة بصفاقس الوحدة الحضرية التي تتوفَّر على أنواع متعددة من الأنماط المعمارية نظرًا لأهمية وظائفها السكنية والاقتصادية والدينية... إلخ.

- أهم مميزاتها:

تميزت مدينة صفاقس بالنّسيج المعماري الذي تحمله وذلك على غرار المدن العربية الإسلامية بمركزتيها التي تضم مختلف المكونات الحضرية. ويميِّز المدينة العتيقة الجامع الكبير الذي تتفَّرع منه عديد الأنهج حتى تظهر الأسوار المحيطة بباب الجبلي وباب الديوان. وتبعًا لذلك، صارت المدينة العتيقة مركز التقاء الطرقات المشعة التي تؤدِّي إلى الضواحي السكنية.

باب الجبلي بمدينة صفاقس

لقد مثَّلت هذه المدينة مركز التقاء التدفّقات البشريّة ومصدر الحركة الاقتصادية. وهذا ما جعل المدينة العتيقة تلعب الدور الكبير والحسَّاس بصفاقس. عرفت المدينة العتيقة في حدود النصف الأوَّل من القرن العشرين نوعا من التوازن، فكانت تضمُّ مختلف الوظائف السكنية والاقتصادية والثقافية والدينية. والواقع، اعْتُبرت هذه الوظائف منظَّمة ضمن المجال المدني. إذْ كان المجال السكني مرتكزا خاصة وراء الجامع الكبير وأنهج الأسواق وذلك في شكل منازل صغيرة الواحدة بجوار الأخرى.

أمَّا بالنّسبة إلى المجال الاقتصادي فهو على الأغلب يتموقع في الأنهج الرئيسية ويتميز كل نهج من هذه الأنهج بحرفة معينة مثال ذلك: سوق البلاغجية وسوق الحدادين وسوق الصباغين وسوق الدكاكين وغيرها ممَّا تحتاجه الفئات الإجتماعية بصفاقس. وبالرغم من تطور نمط العيش الذي شهدته المدينة إلاَّ أنَّها مازالت تحتفظ ببعض الحرف التقليدية مثال ذلك: النّقش على الحجارة والخشب وتطريز الجبب التقليدية. هذا فضلاً عن باعة العطورات التقليدية وصناعة المصوغ.

ظلَّت لهذه المدينة العتيقة مكانة متميزة داخل المدينة مع أوَّل التسعينيَّات، وهي بمثابة القلب النّابض لأنّها المركز والموقع المحوري الذي يحقِّق تواصلاً بين مختلف أجزائها. فبالرّغم من استقرار المساحة الصّغيرة للمدينة العتيقة وتخطيطها القديم إلاَّ أنها ظلَّت النواة التي عُرِفَت بحركتيها المستمرة والمتواصلة ومصدر للتنافس لبعض الحرفيين على الانتصاب في المدينة العتيقة.

إنَّ ما شهدته المدينة العتيقة بصفاقس من نشاط وظيفي واقتصادي يُعَدُّ مؤشّرًا إيجابيًّا. ولعلَّ ما يُهمِّش المنظومة الحضرية داخل المدينة هو الإقصاء الاقتصادي لها. لكنّ هذه الوضعية لا يمكن أنْ تنطبق على مدينة صفاقس العتيقة.

لقد تمَّ تركيز حرفة الحذاءين في المدينة العتيقة بشكل كبير وبصفة خاصة في الجهة الشرقية للمدينة واعتمدت هذه الحرفة على إنتاج البلغة وتحديدا في سوق البلاغجية وتميزت هذه التجارة بسرعة تأقلمها مع الوضع الاقتصادي. وعملت اليوم هذه الحرفة على تنويع صناعتها واعتمدت في ذلك تقنيات متطورة.

تبقى تجارة الأحذية المصدر الرئيسي لبضاعة التفصيل ولكونها العامل الأساسي الذي يمدُّ الحرفيين بالمادّة الأولية كما حافظت هذه المدينة على بعض وظائفها كتجارة الأقمشة وأدوات الخياطة واللّباس التقليدي.

3- أهميّة الموروث الثّقافي في الابتكار التصميمي:

تشهد صفاقس اليوم حوالي خمسة آلاف حرفي معترف بهم ويُساهمون في الحفاظ على الموروث التقليدي المتميز لهذه المدينة. وبالفعل، فقد نجحت مدينة صفاقس في الحفاظ على حركتيها الاقتصادية بالرّغم من كل التحوّلات الاقتصادية والاجتماعية التي شهدتها خاصّة في أواخر القرن العشرين.

إنّ محاولة استحضار مثل هذه الحرف اليدويّة هو اعتراف بقيمتها وإقرار بأهميّتها لأنّها تُعتبر مصدر إلهام للمصمّم، الذي يصرّ على التمسّك بموروثه الثّقافي. إذ في هذه العودة إلى الموروث إحياء للأصل وتمسّك بالهويّة وضمان لاستمرارية بعض الحرف العتيقة. فمثلاً نلاحظ من خلال حرفة الجبوز[٥] وهي من المهن التقليديّة في مدينة صفاقس، التي تعتمد على خشب الزّيتون وتهتم أساسًا، بتزيين محتويات وأثاث المطبخ عن طريق النّحت، إنّ هذه الحرفة ما زالت تُحافظ على مكانتها. إذ تكيّفت مع التطوّرات التكنولوجيّة والتقنيّة المعاصرة. وبالفعل، فإنّ هذه الحرفة التقليديّة تتأقلم بنجاح ملحوظ مع تقنيّة التّصنيع الجديدة عن طريق استخدام آلة التحكم العددي بالكمبيوتر CNC ، وهي آلة رقمية ثلاثيّة المحاور وتسمح بتشغيل مماثل لطابعة ثلاثية الأبعاد.

---

[٥] نقصد بلفظة الجبوز أو الزبوز الزيتونة الجدباء. صارت اليوم هذه اللفظة تعني الخشب المستخرج من شجرة الزيتون. يصنع نجّار الجبوز آلات فلاحيّة وبعض من الأواني الخشبية كالقصعة والمهراس والملاعق ولُعب وبكرات الآبار والصّهاريج. تقع دكاكين نجاري الجبوز في سوق البلغاجين تحديدا بجوار سوق الحدّادين، وذلك لغاية حصول التكامل بين الحدادة والنجارة. عادة ما يجلس نجّار الجبوس على الأرض وتحيط به آلات العمل مثل القادمة للتنجير والمنشار للقصّ والمثقاب كما يستعمل أحيانا النّار لتليين الخشب وتقويمها وتعويجها. انظر الرابط التالي:

https://www.histoiredesfax.com/201411-%D9%86%D8%AC%D8%A7%D8%B1%D8%A9-%D8%A7%D9%84%D8%B2%D8%A8%D9%88%D8%B2/

نجّار الجبوز وتطوّرات الحرفة

نلاحظ من خلال مجموعة هذه الصّور التطوّر الفعّال الذي رافق هذه الحرفة والانتقال بين العمل اليدوي إلى العمل بالآلة. إنّ التراث الذي يُمثّل خلاصة الأجيال السابقة، في هذا السياق يمكن أن يكون التراث سبيلاً للمصمّم ولأنّ «قوّة أيّ تراث عظيم تقاس بمدى قدرته على أن يستفزّ فينا هاجس الإبداع والإضافة، عوض أن نكون مشدودين إلى ثقافة الأطلال من أجل الأطلال»[٦]. لقد ساهمت هذه التقنية الجديدة (آلة التحكم العددي بالكمبيوتر)، في سرعة الإنتاج ووفرته وجودته ونجاعته الصّناعيّة

[٦] القلال (رضا) وقويعة (خليل)، **البلاد العربي بصفاقس، ج١، (إذا صمت التّاريخ تكلّمت الحجارة)**، عن المندوبيّة الجهويّة للشؤون الثقافيّة بصفاقس وجمعيّة سور المدينة بصفاقس، مطبعة نوفا برانت، تونس، مارس، ٢٠١٧. ص. ١٨.

والتصميميّة. وبالتّالي، شهدت نجارة الجبوز تطوّرًا واضحًا خاصّة في مجال تصميم المنتوج من أدوات المطبخ والأواني وحافظات الأكل والأثاث والديكور... لكن لم تقتصر هذه النجارة بمستلزمات المنزل، بل تجاوزت ذلك لتَلج مجال المصوغ كما استعملت في ابتكار الخواتم والقلادات... هذا بالإضافة إلى وُلُوجها مجال تصاميم اللُّعب وتصاميم تخصّ العمارة. لقد باتت حرفة الجبوز واعتماد تقاليدها الحرفيّة، "موضة العصر".

هذه جملة من الصّور تُبيّن مدى أهميّة حرفة نجارة الجبوز وكيفيّة تثمين هذا الموروث اليوم ومواكبتها التّصميم الصّناعي اليوم.

بعض الأدوات المستعملة في المطبخ

مجموعة من الإكسسوار

بعض اللّعب

نُثمّن في هذا المجال، أهميّة الموروث من خلال انفتاح التّصميم على التراث والهوية بشكل عام وكيفيّة استلهام المصمّم من هذا الموروث التقليدي، من خلال عمليّة تمثّل ابتكاري للحرفة اليدويّة، لغاية الحفاظ على ثقافة المجتمع، مهما كانت بسيطة.

ويُمكن أن نذكر في نفس هذا الإطار، بعض من العادات الغذائيّة التي كانت مصدر إلهام في مجال تجاربي التصميميّة. فالخرّوب مثلاً له علاقة وثيقة بتراث صفاقس، إذ يُعتبر شراب الخرّوب أو ما يُطلق عليه في صفاقس باسم " النحاسة" من العادات التقليدية التي يتوارثها سكّان هذه المدينة، جيل بعد جيل وخاصّة في طريقة استعماله، كمشروب تتناوله المرأة بعد الولادة لما له، من منافع صحية كبيرة.

وبالفعل، يتحوّل الخروب إلى نوع من المشروب السّاخن بعد تغليته وإضافة التّين المجفّف والحلبة والزّبيب وبعض الأنواع من التّوابل... للحصول على ما يُشبه شاي الأعشاب أو الشاي الحلو.

مشروب الخرّوب أو ما يُعرف بـ"النحاسة"

قرون الخرّوب

انطلاقًا من هذه العادة الغذائيّة التي تُسمّى بـ"النحاسة"، والتي ارتبطت بالموروث الثّقافي لمدينة صفاقس خاصّة، كانت انطلاقة بحثي في التّصميم وكان قرن الخرّوب بكلّ خصائصه ومميّزاته الشّكليّة خاصّة، حافزًا لإلهامي. فكيف ذلك؟

يحتوي قرن الخرّوب الشّبيه بقرن الفول على ثلاثة أجزاء رئيسيّة: القشرة الخارجيّة واللبّ الدّاخلي والبذور. ويتميّز قرن الخرّوب بلونه البنّي الخفيف أو الأحمر الدّاكن ويتّخذ شكلاً منبسطًا ببنية مستقيمة أو منحنية أو ملتفّة أيضًا. عندما يُجفّف قرن الخرّوب يُصبح أملسًا وصلبًا ولامعًا ويزداد لُبّه طراوة وشفافيّة أمّا البذور الموجودة بداخل قرن الخرّوب فتكون أكثر صلابة[٧]. وفي أثناء بحثي في مجال التّصميم، اكتشفت أنّ بذرة قرن الخرّوب الصّلبة كانت في القديم، عبارة عن وحدة قياس لوزن الألماس إذ لم يكن الوزن بالقيراط معروفًا قبل القرن العشرين وكلمة قيراط cara هي كلمة يونانية قديمة يعود تاريخها إلى حبوب الكوارا في أفريقيا[٨]. أخذت هذه البذور، اللاّمعة الصّلبة، ذات اللّون البنّي الغامق أو الباهت واستعملتها في تزيين بعض الإكسسوار والحليّ.

لقد استوحيت من شكل قرن الخروب ولونه وطراوته وانحناءاته وصلابته... في ابتكار تصاميم مختلفة واعتمدت المادّة الصّمغية لإعادة تمثيل الرّطوبة ومادّة الطّين للحصول على بعض من تلك الالتفاتات والانحناءات مع الاحتفاظ بنوع من الصّلابة في الآن نفسه. كما استعملت مادّة الخشب في تشكيلتي التصميميّة، حتى أحافظ على اللّون الترابي لقرن الخرّوب.

[٧] انظر الرابط التالي :
https://ar.wikipedia.org/wiki/%D
%A8#:~:text=%D9%88%D8
%AA%D8%AD%D8%AA%D9
8%B1%D9%88%D9%86%2
0%D8%A7%D9%84%D8%AE%D8%B1%D9%88%D8%A8%20%D8%A7%D9%84%D8%
AC%D8%A7%D9%81%D8%A9%20%D8%B9%D9%84%D9%89,%D9%8A%D8%B5%D9
%84%20%D8%B7%D9%88%D9%84%D9%87%D8%A7%20%D8%A5%D9%84%D9%89
%2030%20%D8%B3%D9%86%D8%AA%D9%85%D8%AA%D8%B1%D8%A7%D9%8B.
يبلغ طول قرن الخرّوب بين (١٠ و٣٠ صم) ذات حافّة سميكة أمّا عرض القرن فيتراوح بين(١ و ٢,٥ صم) ويصل .(عدد بذور الخرّوب بين (١٠ و ١٣ بذرة

[٨] انظر الرابط التالي: ٣https://ar.wikipedia.org/wiki/%D8%A3%D9%84%D9%85%D8%A7%D8%B
يرجع مصدر كلمة قيراط إلى اليونان(carat) وهي عبارة عن بذور الخروب Carob seeds والتي كانت تستخدم للوزن على الدقّةِ عند الإيطاليين وعند العرب. وقد إختلفت أوزان القيراط من دولة لأخرى ومن منطقة لأخرى فكانت تتراوح بين (١٨٨–٢٠٣) ملغرام، ثم كان تقسيم القيراط إلى درجات أقلّ. فمنها خمس القيراط وعُشر القيراط ويقاس وزن الألماس الصغير بالنقطة (point) والتي تعادل (١/١٠٠) من القيراط.

حجرة الألماس

إنّه انطلاقا من هذا الموروث: النحاسة" المشروب الغذائي، التي تميّزت به مدينة صفاقس كان أُفق بحثي ومصدر إلهامي فاشتغلت على قرن الخرّوب وجسّدته تصميميًّا وجماليًّا، بطريقة ابتكارية. إذ إنّنا في عمليّة استحضار هذا الموروث الثقافي ينتابنا شعور جميل بأنّنا «شركاء في خلق تلك الأعمال الّتي تستهوينا»[9]، على حدّ تعبير أرنست فيشر وبأنّنا ملتزمون أكثر لتشكيله بجماليّة. وهذه بعض الصّور التي تُوضّح النّتيجة التي تحصّلت عليها.

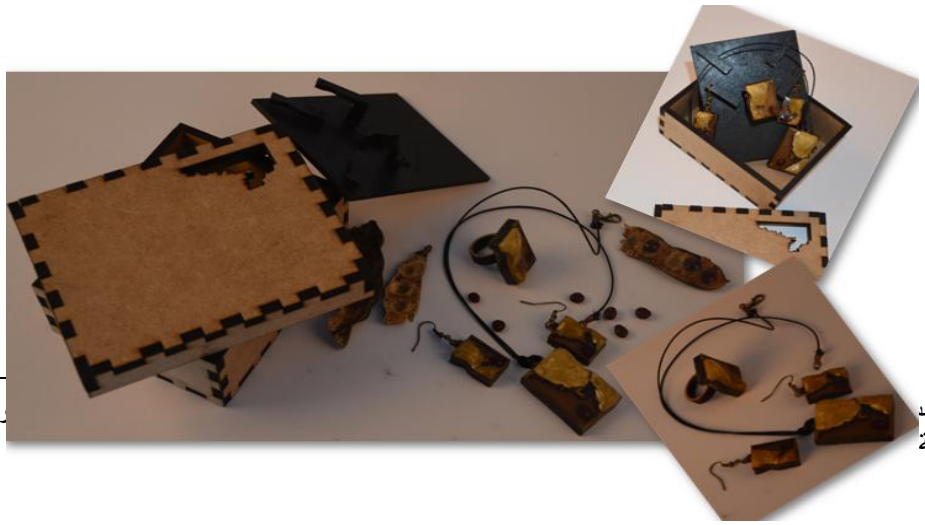

[9]- فيشر (آرنـ ...ون التّشكيليّة، الشارقة).

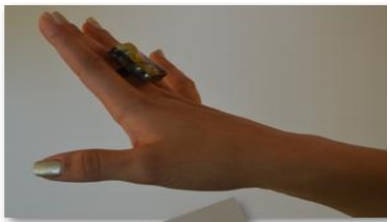

خاتمة:

ختامًا، إنّنا بحاجة اليوم إلى ردّ الاعتبار إلى التّاريخ الثّقافي المادّي والغير مادّي والعودة إلى موروثنا العريق للاستمرار والعطاء والإبداع... ورغم أنّ مدينة صفاقس تُشكّل إلى حدٍّ يومنا هذا، قطبًا رئيسيًّا من أقطاب التجارة والاقتصاد بالبلاد التونسية وذلك لكثرة المؤسَّسات الصناعية والخدمية والحرفيَّة وانتظام التبادل التجاري وأشكال التسوُّق والتسويق بها، إلاّ أنّ كشف الستار عن مميّزاتها التراثيّة هو ما يُضفي ثراء على قيمتها. فهذه المدينة تزداد ترسُّخًا في ذاكرة الأعلام الرحَّالة وعموم المنتسبين إلى سؤال العلم والمعرفة وقد مرَّ بها قبل الإسلام الرُّومان تخصيصًا. وكان في تنوّع تركيبة المدينة اجتماعيا على عدَّة عائلات منحدرة من أصول متنوِّعة ومن جهات عدَّة وتميّزها بهذا التعايش بين مواطنيها وما شكَّلوه من عادات تخصُّهم دون سواهم، و الدور الكبير في تشاركهم وتواصلهم مع سائر سكَّان البلاد التونسيَّة. وبالتّالي، فقد حاولنا في النّهاية فتح آفاق عمل ممكنة للحفاظ على هذا الإرث العريق وكيفيّة استفادة المصمّم اليوم من التراث مهما كان نوعه.

قائمة المراجع

العش، وليد، و الرخيص، وجدي. (٢٠١٦). تاريخ صفاقس القديم: من تفرورة القرطاجية إلى اسفاقس الأغلبية. صفاقس: قرطاج للنشر والتوزيع.

القلال، رضا، و قويعة، خليل. (٢٠١٧). البلاد العربي بصفاقس (ج. ١، إذا صمت التاريخ تكلمت الحجارة). تونس: المندوبية الجهوية للشؤون الثقافية بصفاقس وجمعية سور المدينة بصفاقس، مطبعة نوفا برانت.

عبد الكافي، أبو بكر. (١٩٦٦). تاريخ صفاقس (ج. ١: الحياة العمرانية). صفاقس.

فيشر، آرنست. (د.ت.). ضرورة الفن (ترجمة أسعد حليم). الشارقة: منشورات مركز الشارقة للإبداع الفكري، مكتبة الفنون التشكيلية.

مقديش، محمود. (١٩٨٨). نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار (ج. ٢). لبنان: دار الغرب الإسلامي.